الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمة لخضر – الوادي

معهد العلوم الإسلامية

قسم الحضارة الإسلامية

" دروس في مادة: علوم القرآن "

موجّهة إلى طلبة السنة الأولى علوم إسلامية

السداسي الأول

إعداد الدكتور: ميلود عمارة.

الدرس الأول

مدخل إلى علـوم القرآن

وفيه: "تعريف علوم القرآن"

العلم: أصل وضعه اللغوي: ضدّ الجهل، ويشمل كلّ معلوم؛ لكن المراد هنا العلوم التي صار لها مسمى خاصا: علم النّحو، علم اللغة... ويطلق العلم من الوجهة الاصطلاحية على المسائل المضبوطة ضبطا خاصا. وهو يشمل جملة من الأصول والمبادئ التي تجتمع في موضوع كلي واحد، ويدركها الطالب بالنظر إلى الموضوع: مقدار الغنّة....

القرآن: لغة: مأخوذ من مادة قرأ، أي تلا وهذا ظاهر.. أمثلة، قوله تعالى: **{وإذا قُرئ القرآن... }**

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ}[يونس : 61]، فالقرآن بمعنى المقروء

– وقال الشافعي رحمه الله: القرآن اسم علم غير مشتق، وهو خاص بكلام الله تعالى مثل التوراة والإنجيل، واختاره السيوطي، يقول الجاحظ: "سمى الله كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل فسمى جملته قرآنا كما سموا ديوانا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضه آية كالبيت، وآخره فاصلة كالقافية."

وقد فصل ابن القيم في كتابه: زاد المعاد: في المعنى اللغوي للقرآن فقال: "وقولكم: إن القرء مشتق من الجمع وإنما يجمع الحيض في زمن الطهر. عنه ثلاثة أجوبة .

أحدها: أن هذا ممنوع، والذي هو مشتق من الجمع إنما هو من باب الياء من المعتل، من قرى يقري، كقضى يقضي ، والقرء من المهموز بنات الهمز ، من قرأ يقرأ ، كنحر ينحر.

وهما أصلان مختلفان فإنهم يقولون: قريت الماء في الحوض أقريه ، أي : جمعته، ومنه سميت القرية، ومنه قرية النمل: للبيت الذي تجتمع فيه، لأنه يقريها ، أي : يضمها ويجمعها .

وأما المهموز، فإنه من الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد، ومنه قراءة القرآن، لأن قارئه يظهره ويخرجه مقداراً محدوداً لا يزيد ولا ينقص، ويدل عليه قوله: "**إن علينا جمعه وقرآنه**" [القيامة : 17]، ففرق بين الجمع والقرآن. ولو كانا واحداً، لكان تكريراً محضاً ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: "**فإذا قرأناه فاتبع قرآنه** " [القيامة : 18]، فإذا بيّناه فجعل قراءته نفس إظهاره وبيانه ، لا كما زعم أبو عبيدة أن القرآن مشتق من الجمع .

اصطلاحا: كونه صفة: يذكر علماء أهل السّنة أنّ للقرآن الكريم خصائص منها:

- أنه كلام الله حقيقة، وأنه صفة من صفاته منه بدأ وإليه يعود.
- أنه غير مخلوق – يُرفع آخر الزمان من المصاحف والصدور.
- أنّ الصّوت يُنسب إلى القارئ، بينما المتلوّ والمقروء هو كلام الله تعالى.

أما من الناحية اللفظية التي من خلالها عّرفه الأصوليون: لأنّ عنايتهم كانت من الجهة اللفظية والدلالية للقرآن دون الوجهة العقدية. والمتقدمون لم يضعوا تعريفا للقرآن، وإنما تكلموا عن أحكامه وخصائصه وأوصافه: "ما نُقل إلينا بين دفتي المصحف نقلا متواترا".

وأيضا هو: "كلام الله، المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتعبّد بتلاوته، المعجز بأقصر سوره "

- **مصطلح علوم القرآن:**

ونعني بها: جملة من أنواع المعلومات المضبوطة ضبطاً خاصّاً المتعلقة بالقرآن الكريم من حيث نزوله وجمعه وقراءاته ومكيّه ومدنيّه وأسباب نزوله، وما إلى ذلك.

ونشير إلى أن أشمل كتابين في علوم القرآن – البرهان للزركشي والإتقان للسيوطي- لم يعرّفا علوم القرآن وإنما جاء عند المتأخرين المعاصرين.

بعض كتب القدامى حملت عنوان: "علوم القرآن" وهي كتب تفسير:

- المختزن في علوم القرآن لأبي الحسن الأشعري، 324هـ بلغ فيه سورة الكهف
- المغني في علوم القرآن لابن الجوزي 597هـ أحد ثلاثته وهو في التفسير- الأمد- الاستغناء

- أول من دوّن في علوم القرآن بصورة مستقله: الحارث المحاسبي 243هـ في كتابه:(فهم القرآن) من حيث المحتوى والمضمون دون العنوان، فالكتاب يدخل في مصطلح علوم القرآن بالمعنى التدويني، فيكون ظهور التأليف في هذا الفن في **ق3هـ**.
- وأول كتاب أبرز هذا المصطلح من حيث الاسم والمسمى: "التنبيه على فضل علوم القرآن "لأبي القاسم بن الحسن النيسابوري (ابن حبيب) 406هـ.
- نشأة مصطلح علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي كانت في ق5هـ وقبل ذلك كان يطلق على من ألف في التفسير أنه في علوم القرآن.
- **استعمال العلماء لمصطلحات مرادفة لعلوم القرآن:**

علوم القرآن هو المصطلح الأشهر الذي سار عليه العلماء والباحثون في تسمية الموضوعات المشار إليها في تعريفه باعتباره فنّاً مدوَّناً، وقد استخدم العلماء في كتبهم مصطلحات مرادفة لعلوم القرآن . سواءٌ أكانت كتبهم في التفسير أم في علوم القرآن الاصطلاحية؛ لأنّ النظر هنا إلى الإضافة التي وقعت عند العلماء . وهذه الإضافات المرادفة لعلوم القرآن هي:

1 - **علم القرآن**. ككتاب: «الجامع لعلم القرآن»، لعلي بن عيسى الرماني المعتزلي ت384هـ وهو مخطوط والموجود منه جزء صغير.

2 - **علم الكتاب**، أو **علوم الكتاب**. «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون»، للسمين الحلبي. **756هـ**

3 - علم التنْزيل، أو علوم التنْزيل. ككتاب: «التسهيل لعلوم التنْزيل»، لابن جزي الكلبي (ت741هـ)، وهو مطبوع.

- **بعض كتب علوم القرآن قبل البرهان:**

– فنون الأفنان في عيون[1] علوم القرآن: لابن الجوزي ت597هـ، له 25 مصنف في القرآن وعلومه: بلغت أنواع علوم القرآن فيه واحد وعشرون نوعا، اجتنب الإطالة، كما اعتمد في النقل على الطبري.

– جمال القراء وكمال الإقراء: علم الدين السخاوي 643هـ: عنوانه يوحي أنه في القراءة، لكنه يعد من كتب علوم القرآن من انواع علوم القرآن التي ذكرت فيه:- نثر الدرر في كر الآيات والسور- الإفصاح الموجز في إيضاح المعجز- الطود الراسخ في المنسوخ والناسخ.

– المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز: لأبي شامة المقدسي:665هـ: وهو في الأصل شرح لحديث: أنزل القرآن على سبعة أحرف

- **بعض المصنفات التي جمعت أنواعا من علوم القرآن بعد كتاب "البرهان" وقبل كتاب "الإتقان":**

– «مواقع العلوم من مواقع النجوم» للبلقيني (ت824هـ).

– «التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد»، لأحمد بن محمد البسيلي التونسي (ت830هـ)، وقد طُبع منه إلى تفسير سورة آل عمران.

– «العجاب في بيان الأسباب»، لابن حجر العسقلاني (ت852هـ)، وهو مطبوع.

– «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، للثعالبي الجزائري (ت875هـ)، وهو مطبوع.

– «التيسير في قواعد علم التفسير»، لمحمد بن سليمان الكافِيَجِي (ت879هـ)، وهو مطبوع.

– «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» لبرهان الدين البقاعي (ت885هـ)، وهو مطبوع.

1- وفي بعض الطبعات: فنون الأفنان غي **عجائب** علوم القرآن.

- «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» لبرهان الدين البقاعي (ت885هـ) وهو مطبوع.
- «كشف السرائر في معاني الوجوه والأشباه والنظائر» لابن العماد (ت887هـ)، وهو مطبوع.

- **بعض كتب علوم القرآن بعد الإتقان للسيوطي:**

- «الزيادة والإحسان في علوم القرآن» لمحمد بن أحمد ابن عقيلة المكي (ت1150هـ)
- «التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان» لطاهر الجزائري (ت1338هـ)
- «مناهل العرفان في علوم القرآن»، لمحمد عبد العظيم الزرقاني (ت1367هـ)، وقد ألَّفه لطلاب الدعوة والإرشاد في كليات الأزهر.
- «المحرر في علوم القرآن»، لمساعد الطيار.
- «مباحث في علوم القرآن»، للدكتور صبحي الصالح (ت1407هـ)

الدرس الثاني:

نــزول القرآن وجمعــه

المبحث الأول: الوحـــي.

المبحث الثاني: نزول القرآن.

المبحث الثالث: جمع القرآن

المبحث الأول: الوحـي

تعريفه: لغة: قال ابن فارس (ت395هـ): «الواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في خفاءٍ، أو غيره إلى غيرك. فالوحي: الإشارة، والوحي: الكتابة والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى عَلِمَهُ فهو وحي؛ كيف كان ...» [1]

وكل ما ذُكر من أنواع الوحي ـ كالإلهام، والرمز، والإشارة، والأمر، والكتابة ـ فإنها لا تخرج عن معنى (إلقاء علمٍ في خفاء).

أما الوحي الوارد في الكتاب والسنة فقد ورد في مواضع كثيرة منها ما جاء في آية الشورى التي تمثل أعلى هذه الأنواع التي يقع فيها سماع كلام الله، قال تعالى: **{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}** [الشورى: 51].

وقد ذكرت هذه الآية ثلاثة حالات للوحي، وهي كالآتي:

1 – أن يلقي كلامه على النبي بكيفية غير معتادة فيعيه.

---

1 – مقاييس اللغة، مادة (وحى)، وقريب من ذلك ما ذكره الراغب الأصفهاني: «أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمُّن السرعة قيل: أمرٌ وحيٌ، وذلك يكون بالإعلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرَّدٍ عن التركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابة ...». مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان داودي (ص858).

2 – أن يكلمه مباشرة من وراء حجاب، فلا يرى النبي ربه، لكن يسمع كلامه، وقد وقع هذا لموسى عليه السلام في بدء وحيه، وفي ميعاده مع ربه لأخذ الشريعة التي كانت في الألواح. وحصل لنبينا محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم في معراجه، حيث أخذ الأمر بالصلاة عن ربه مباشرة.

3 – أن يرسل رسولاً من الملائكة، وغالباً ما يكون المرسَل جبريل عليه السلام إن كان الأمر يتعلق بالنبوة والشريعة وقد يرسل غيره لأمور أخرى، كما هو وارد في الآثار.

والوحي الذي يُنْزله الله بواسطة الملك جبريل على نبي من أنبيائه هو الغالب على الوحي إلى الأنبياء، فنُزول الملك جبريل عليه السلام على أحد من البشر إيذانٌ ببدء الوحي.

فالوحي بلغة القرآن والسنّة هو:" **إعلام الله لنبي من أنبيائه بكيفية معينة بنبوته، وما يتبعها من أوامر ونواهٍ وأخبار**".

أولا: كيفية الوحي:

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنّ الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله. كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول».[1]

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينْزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا. [2]

أما مجيئه إليه بالصورة البشرية فلم يرد فيه الوحي بالقرآن بها سوى خبر الحارث بن هشام رضي الله عنه المجمل، وإنما الوارد في أمور أخرى، كما وقع في تعليم الناس أمور الدين في حديث جبريل عليه السلام الطويل في سؤاله الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة، وكان كثيراً ما يتمثَّل بصورة الصحابي دحية الكلبي رضي الله عنه. [3]

---

1 - وأخرجه مسلم. (2333).

2 - رواه البخاري برقم (2)؛ ومسلم برقم (2333).

3 - ينظر: البخاري برقم (3634)؛ ومسلم (2451) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

- **مسألة: هل وقع الوحي بالقرآن بغير الطريق المشهور؟**

عن أنس رضي الله عنه قال: «بينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم بين أظهرنا إذ **أغفى إغفاءة** ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟

قال: أنزلت علي آنفا سورة فقرأ: {**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**} [الكوثر: 1 – 3]»[1]

حمل بعض من العلماء عبارة **أنس رضي الله عنه**: «أغفى إغفاءة» على الحالة التي كانت تعتري الرسول صلّى الله عليه وسلّم أثناء الوحي أولى، وليس على حالة النوم؛ لأن كون الرسول صلّى الله عليه وسلّم في المسجد، وبين أظهرهم يُبعِد أن يقع منه نومٌ، فتلك مخالفة للمعتاد من حاله مع أصحابه، أما وقوع الوحي، وهو بينهم، فهذا كثيرٌ جدّاً.

وحتى لو كان هذا وقع، فإنه لا شيء يخلُّ بقرآنية سورة الكوثر؛ لأنَّ رؤيا الأنبياء وحي، والنبي صلّى الله عليه وسلّم تنام عيناه ولا ينام قلبه، وقد رأى في منامه من الوحي الشيء الكثير.

ثانيا: أنواع الوحي:

تتبع العلماء استعمالات الوحي في القرآن والسنة فظهرت في ذلك عدة أنواع من الوحي، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

الأول: الوحي إلى الأنبياء بأي نوع من أنواع الوحي غير الصريح؛ كالإلهام أو الإلقاء في الروع، والمنام في مثل قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: 102]، بدلالة ردِّ ابنه إسماعيل عليه السلام عليه بقوله: افعل ما تؤمر، فهو وحي.

---

1 - ينظر: مسلم برقم (400).

الثاني: وحي الله إلى غير أنبيائه من البشر؛ كوحيه إلى أم موسى، في قوله: {**وأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**} [القصص: 7].

الثالث: وحي الله إلى ملائكته، كما وقع في قصة بدر، في قوله تعالى: {**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا..** } [الأنفال: 12].

الرابع: وحي الله إلى بعض مخلوقاته غير العاقلة، كوحيه إلى النحل، في قوله تعالى {**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا**} [النحل: 68]، ووحيه إلى السماء في قوله تعالى: {**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**} [فصلت: 12]، ووحيه إلى لأرض في قوله تعالى: {**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**} [الزلزلة: 5].

المبحث الثاني: نزول القرآن وكيفيته

- **ابتداءُ النُّـــزول:**

كان نزول جبريل عليه السلام على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غار حراء مؤذنٌ ببداية النّبوة، وقد نزل بالآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى: {**اقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَا وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**} [العلق: 1 – 5].

وقد أشارت ثلاث آيات إلى بداية النُّزول، وذلك قوله تعالى: {**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**} [البقرة: 185]، وقوله تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ *فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**} [الدخان: 3 – 4]، وقوله تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**} [القدر: 1].

وهذه الآيات في ظاهرها تشير إلى أول نزولٍ للقرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأنه كان في ليلة القدر من شهر رمضان، وهذا النُّزول على الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو

الذي يتعلق به هداية الناس في قوله تعالى: {**هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**} [البقرة: 185].

وللعلماء في نزول القرآن مذهبان أساسيان:

1. النُّزول الجُملي:

ثبت عن **ابن عباس** رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**} [القدر: 1] أنه نزل إلى سماء الدنيا، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**} قال: «أُنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا، كان بموقع النجوم، فكان الله ينْزله على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعضه في إثر بعض، قال عزّ وجل: {**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**} [الفرقان: 32]»

وهذا النُّزول الجملي لا تتعلق به أحكام سوى بيان شرف هذه الأمة وفضلها؛ إذ نزوله بهذه الصفة دون غيره من الكتب إيذان بتميُّزها عن غيرها، والله أعلم.

ولما كان هذا النُّزول الجملي من المغيبات، فإنه يخرج عن السؤالات التكييفية، فالبحث في كيفية هذا النازل، وفي أحواله من ترتيبه وكيفية تدوينه، أو القول بنُزول آيات فيه لم يقع مضمونها؛ كل هذا من اقتحام كيفيات الغيبيات وهو من المتشابه الكلي الذي لا يعلمه إلا الله.

أما جبريل عليه السلام فكان يتلقّاه مباشرة عن ربِّ العالمين بلا واسطة، لا كما وقع الوهم عند بعض العلماء فظنَّ أن جبريل عليه السلام يأخذه من السفرة في بيت العزَّة فيُنجِّمه على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فهذا النُّزول الجملي متعلق بأهل السماء الدنيا؛ إذ ليس فيه أثر يتعلق بأهل الأرض، أما ابتداء نزوله الذي قال الله فيه: {**هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**} [البقرة: 185] فهو متعلق بأهل الأرض؛ لأن فيه هدايتهم كما نصّت الآية.

2. النُّزول المفرَّق:

وهذا هو المذهب الثاني؛ وهو الذي رُوِيَ عن "الشعبي" أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر في شهر رمضان، وهي الليلة المباركة، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجًا مع الوقائع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله مُنَجَّمًا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لأن هذا هو الذي جاء به القرآن: {**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا**} [الإسراء: 106.]، وقد جادل في تفريقه المشركون الذين نُقِلَ إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة: قال تعالى: {**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً، وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**}[الفرقان: 32-33]

- وهناك **مذهب ثالث**: يرى أن القرآن أُنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر، في كل ليلة منها ما يُقَدِّرُ الله إنزاله في كل السنة، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك مُنَجَّمًا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في جميع السنة.

وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسرين، ولا دليل عليه.

أمّا **المذهب الثاني** الذي رُوِيَ عن الشعبي فأدلته –مع صحتها والتسليم بها– لا تتعارض مع المذهب الأول الذي رُوِيَ عن ابن عباس. فيكون نزول القرآن جملة وابتداء نزوله مفرقًا في ليلة القدر من شهر رمضان، وهي الليلة المباركة.

فالرّاجح أن القرآن الكريم له تنزلان:

الأول: نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا.

والثاني: نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

* **الحكمة من نزول القرآن مُنَجَّمًا:**

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم مُنَجَّمًا من النصوص الواردة في ذلك.

ونجملها فيما يأتي:

– **تثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

– **بيان الإعجاز القرآني:** حيث عجبوا من نزول القرآن مُنَجَّمًا بيَّن الله لهم الحق في ذلك فإن تحديهم به مفرقًا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز، وأبلغ في الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم: جيئوا بمثله.

– **تيسير حفظه وفهمه.**

– **مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع.**

– **الدلالة القاطعة على أنّ القرآن الكريم منزل من حكيم حميد:** إن هذا القرآن الذي نزل مُنَجَّمًا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في أكثر من عشرين عامًا تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النسج، دقيق السبك، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور، كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يُعهد له مثيل في كلام البشر: {**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**}[هود: 1].

.....

بعض المراجع:

1 – «**نزول القرآن**»، لشيخ الإسلام ابن تيمية. (ت728هـ).

2 – «**الجواب الواضح المستقيم في كيفية نزول القرآن الكريم**»، لمفتي المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

3 – «**نزول القرآن**»، للأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع.

الدرس الثالث

جمع القرآن

أولا: الجمع في الصّدور:

أما الجمع في الصدور، فهو تيسير حفظه للمسلمين، فتراهم في شتى بقاع الأرض يترنَّمون بهذا القرآن حفظاً وبعضهم لا يكاد يعرف العربية لا قراءة ولا كتابة، وتلك مزية لا تجدها لغير القرآن.

وموضوع حفظه في الصدور من الوضوح بمكان، لذا لا يحتاج الأمر إلى كثير تقرير له، ولقد نصَّت آياتٌ على تيسير هذا الأمر على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومن ثمَّ على أمته التي ستحمل عنه هذا الكتاب الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: {**سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى *إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**} [الأعلى: 6 - 7]، وقوله تعالى: {**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ *إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ *فَإِذَا قَرَانَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ *ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**} [القيامة: 16 - 19]. أي تأليفه. قال أبو عبيدة: وإنما سمي قرآنا لأنه جمع السور وضمّها.

رَوى الإمام أحمد بسنده عن زر عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارْقَ ورَتِّلْ كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منْزلتك عند آخر آية تقرؤها »[1]

*** الجمع في السّطور:**

مرَّ الجمع في السطور بمراحل متعددة، وقد قسمها العلماء إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم.

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

المرحلة الثالثة: في عهد عثمان رضي الله عنه.

---

[1] ينظر: المسند: 2/192.

ولكلّ مرحلة من هذه المراحل خصائصها وسماتها، ويمكن تفصيل القول فيها من خلال الآثار الواردة في هذا الموضوع، وإليك هذا التفصيل:

- **المرحلة الأولى: جمع القرآن في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)**

لما كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم في مكة وقبل تنظيم المجتمع المسلم؛ لم يكن هناك اعتناءٌ ظاهرٌ بتدوين القرآن.

ولما انتقل النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة النبوية، وكان الأمر قد آل إليه كان مما اعتنى به كتابة القرآن فكتب ما نزل عليه بمكة، وإذا نزل عليه شيء من القرآن بالمدينة كتبه، وألَّف "**جمع**" القرآن المكي والمدني، وقد كان له في المدينة كتَّابٌ معروفون يدعوهم لكتابة ما ينْزل من القرآن، وكان من أخصِّهم بذلك زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه.

ومما يدلُّ على أنَّ القرآن لم يكن مجموعاً في مصحفٍ واحدٍ في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم، الحديث الذي ذكره البخاري في جمع أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن زيد بن ثابت أخبر عن جمع متفرق القرآن بقوله: «**فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُبِ والرِّقاع واللِّخَاف**»[1]

وهذا يدل على أن القرآن لم يكن مجموعا بل كان متفرقاً في مثل هذه الأدوات التي ذكرها زيد رضي الله عنه.

وقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يعتني بكتابة القرآن أيما عناية، وكان يطلب أحد كتبة الوحي بكتابة القرآن إذا نزل عليه القرآن، وهذا مما دلَّت عليه الآثار، مثل ما رواه البخاري بسنده عن البراء رضي الله عنه قال: «لما نزلت: {**لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**} [النساء: 95] دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله: {**غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ**}»

*** ملامح هذا الجمع:**

[1] العُسُب جمع عسيب: سعف النخيل، وأهل الحجاز يسمونه الجريد. اللِّخاف واحدتها: لَخْفة وهي حجارة بيض رقاق.

1 – أنه كان مفرَّقاً في عدد من أدوات الكتابة.

2 – أنّ القرآن الذي نقرؤه كله كان مكتوباً في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يكن منه شيء غير مكتوب، ثم كُتب بعد ذلك.

- **المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر "رضي الله عنه"**

استحر القتل أي اشتدّ بموقعة اليمامة –واقعة جهة نجد– وكانت مع مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة وقد قتل في هذه الواقعة جمع من القراء وابتدأت غزوتها في أواخر **عام الحادي عشر** وانتهت في ربيع الأول عام الثاني عشر للهجرة وفيها قتل من القراء سبعون قارئا من الصحابة وقيل سبعمائة وقد قتل منهم مثل هذا العدد في بئر معونة قرب المدينة في عهد النبي صلي الله عليه وسلم، ولا يخفي أن قتل مثل هذا العدد من القراء ليس بقليل، خصوصا والكتابة لم تكن منتشرة عندهم حتى يرجعوا إلى ما كتبوه بل كان اعتمادهم على ما في صدورهم.

قال زيد: قال أبو بكر رضي الله عنه: **إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك**، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمراني به من جمع القرآن.

قال البيهقي: وقد روينا عن زيد بن ثابت أن **التأليف** كان في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وروينا عنه أن **الجمع في الصحف** كان في زمن أبي بكر، **والنسخ في المصاحف** كان في زمن عثمان، وكان ما يجمعون وينسخون معلوما لهم، فلم يكن به حاجة إلى مسألة البينة.

ولم تكن البينة على أصل القرآن، فقد كان معلوما لهم ذكر، وإنما كانت على ما أحضروه من الرقاع المكتوبة فطلب البينة عليها أنها كانت كتبت بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبإذنه على ما سمع من لفظه على ما سبق بيانه، ولهذا قال: فليمل سعيد، يعني من الرقاع التي أحضرت، ولو كانوا كتبوا من حفظهم لم يحتج زيد فيما كتبه إلى من يمليه عليه.

*** ملامح هذا الجمع:**

1 – أن القصد منه جمع المكتوب المتفرق من القرآن في مصحفٍ واحدٍ.

2 – أن سبب الجمع هو شدة القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، والمجموع لن يكون سوى ما ثبتت قرآنيته.

3 – أن كثيراً من التفاصيل المتعلقة بطريقة كتابة المصحف، وما فيه من معلومات لم يرد فيها شيء، وما يحكيه العلماء من بعض هذه التفاصيل، فإنه لم يثبت فيها نص صريح البتة؛ كمن يحكي أن في ترتيب السور خلافاً.

جاء في صحيح البخاري أنّ شداد بن معقل قال لابن عباس: «أَتَرَكَ النبي صلّى الله عليه وسلّم من شيء؟

قال: ما ترك إلا ما بين الدّفتين.

يقول البيهقي في "شعب الإيمان" «وأَمَرَ أبو بكر رضي الله عنه بجمع القرآن، ونَقَلَه إلى مصحفٍ، ثم اتخذ عثمان من ذلك المصحف مصاحف، وبعث بها إلى الأمصار، ولم يُعْرَف أنه أُثبت في المصحف الأول، ولا فيما نُسِخَ منه شيء سوى القرآن، فلذلك ينبغي أن يُعمل في كتابة كل مصحف»

- **المرحلة الثالثة : في عهد عثمان رضي الله عنه**

1 – سبب الجمع:

«أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه . وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق . فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين؛ أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان رضي الله عنه إلى حفصة رضي الله عنها أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة رضي الله عنها إلى عثمان رضي الله عنه، فأمر **زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام** رضي الله عنهم

فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان رضي الله عنه للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان رضي الله عنه الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق».

لم يذكر حذيفة رضي الله عنه مثالاً على هذا الاختلاف الكائن بين القراءة، وقد يكون الاختلاف كمثل الاختلاف الوارد في الأثر السابق عن علقمة بحذف وإثبات، وقد يكون بإبدال لفظ بلفظ، وقد يكون بطريقة قراءة، كلّ ذلك جائز أن يكون، والله أعلم.

2 – أن القصد من هذا العمل نسخ مصاحف من مصحف أبي بكر، الذي هو أصل العمل: «فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان».

كانت المصاحف عند عمر رضي الله عنه، ثم عند حفصة رضي الله عنها بعده، فأخذها عثمان رضي الله عنه بقصد نسخ مصاحف من هذا المصحف، ولم يكن له هدف آخر كالانتخاب منه، كما يذهب إليه بعضهم حيث يذهب إلى أنْ عثمان رضي الله عنه ترك **المنسوخ** من الآيات الواردة في مصحف أبي بكر رضي الله عنه وقد مضى التنبيه على عدم وجود، مثل هذه الآيات في مصحفه.

3 – تكوين لجنة لهذا العمل العظيم:

« فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. ».

يلاحظ **أنَّ** ثلاثة منهم **مكيُّون**، والرابع **مدنيٌّ** وهو زيد بن ثابت رضي الله عنه، ويلاحظ أنه نصَّ على عملهم وهو النسخ فحسب.

4 – المنهج المتبع في الرّسم حـال الاختلاف:

«وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: "**إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم**"، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة».

أرشدهم عثمان رضي الله عنه إلى ما يعملونه حال اختلافهم في رسم كلمة ما، بدلالة قوله «فاكتبوه»؛ أي: فارسموه بطريقة نطق قريش التي نزل القرآن أول ما نزل بلغتها.

5 – إلزام الناس بما نُسِخ من مصحف أبي بكر، وأمرهم بتحريق مصاحفهم:

«و أرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق».

.....

بعض المراجع: «جمع القرآن في مراحله التاريخية»، للباحث محمد شرعي أبو زيد.

الدرس الرابع:

المكي والمدني.

- **طرق تعبير السّلف عن نزول القرآن:**

المكي والمدني مصطلحان مرتبطان بالمكان والزمان، وعليهما وقعت عبارات العلماء رحمهم الله.

وكان للسلف عناية خاصة بمكان نزول القرآن، وكان أول نزول القرآن في غار حراء بمكة، ثم تتابع نزوله على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكان منه ما نزل بمكة قبل الهجرة، وما نزل في ضواحي مكة، ثمَّ هاجر الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة، ونزل عليه فيها القرآن وكان له سفرات نزل فيها قرآن، وكان منه ما نزل عليه بمكة بعد هجرته صلّى الله عليه وسلّم فكيف كان السلف يعبِّرون عن هذا النُّزول؟

لقد كان للسلف طريقتان في التعبير عن النُّزول:

الأولى: روايات تذكر كل السور، وتميز مكيها من مدنيها.

الثانية: روايات متفرقة تذكر المكي والمدني، ويكثر في هذه الروايات الإشارة إلى أماكن نزول الآيات.

وفي كلا الطريقتين لم يقع منهم نصٌّ مباشر على الزمان، يعني: (قبل الهجرة، وبعد الهجرة).

بل كان الوارد عن بعض **الصحابة** التنبيه على **معرفة المكان** دون الزمان؛ كالوارد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «والذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه» ، وقد ورد هذا المعنى عن غيره من السلف.

ومنها ما رواه البخاري بسنده عن طارق بن شهاب «أن أناساً من اليهود قالوا: لو نزلت هذه الآية فينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. فقال عمر: أية آية؟ فقالوا: {**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ**

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: 3]. فقال عمر رضي الله عنه: «إني لأعلم أي مكان أنزلت؛ أنزلت ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم واقف بعرفة»

فهذه الروايات وغيرها تدل على أنَّ السلف كانوا يُعنون بذكر المكان الذي نزلت فيه السورة أو الآية، لكن لا يعني هذا أنهم كانوا يُغفلون الزمان؛ الذي ضبطه بعض أتباع التابعين بضابط الهجرة، فما كان قبل الهجرة فهو مكي وما كان بعد الهجرة فهو مدني، فهذا الضابط، وإن لم ينصوا عليه إلا أنهم يعملون بفحواه، فهل يُتصوَّر أن يكون نزول آية إكمال الدين في مكة قبل الهجرة؟

بالطبع لا، فقول عمر رضي الله عنه: «أنزلت ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم واقف بعرفة» يتضمن نزولها بعد الهجرة؛ لأن حجّة الوداع كانت بعد الهجرة قطعاً، ولم يكن هناك داعٍ لأن يقول عمر: نزلت بعد الهجرة، ولا كان من مصطلحات الصحابة والتابعين وكثير من أتباع التابعين.

ورأى العلماء أن أول من نصَّ على هذا الضابط الزماني يحيى بن سلام البصري (ت200هـ) قال: "... وإن ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلُغ النبي عليه السلام المدينة فهو من المكي. وما نزل على النبي عليه السلام في أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدني"[1]

وهذا الضابط الزماني هو الذي اعتمده العلماء المتأخرون، وسارت به الكتب بعدهم.

وقد كتب السيوطي (ت911هـ) وغيره في هذا المبحث مسائل متنوعة، ومنها: اصطلاحات المكي والمدني، وقد جعلها ثلاثة:

الفرق بين المكي والمدني:

- ما كان بمكة فهو مكي، وما وجاورها كمِنى وعرفات والحديبية. وما كان بالمدينة فهو مدني، كأُحد وقُباء وسلع وهذا فيه اعتبار المكان. ولا يرتب على هذا؛ ما نزل بالأسفار أو بتبوك أو

ببيت المقدس، فلا يسمى مكيًّا ولا مدنيًّا، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيًّا.

• ما كان خطاباً بصيغة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} فهو مكي، وما كان بصيغة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فهو مدني، وهذا فيه اعتبار الخطاب. فالمكي: ما كان خطابًا لأهل مكة، والمدني: ما كان خطابًا لأهل المدينة.

• ما كان قبل الهجرة فهو مكي وما كان بعد الهجرة فهو مدني، وهذا فيه اعتبار الزمان. كالذي نزل عام الفتح كقوله تعالى: {**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّواْ الأَمَانَات إِلَى أَهْلِهَا**} فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة، وهذا هو **الراجح**.

لذلك يقول ابن جزي في تعريف المكي والمدني: ((اعلم أن السور المكية هي التي نزلت بمكة، ويُعدُّ منها كل ما نزل قبل الهجرة، وإن نزل بغير مكة، كما أن المدنية هي السورة التي نزلت بالمدينة ويُعدُّ منها كل ما نزل بعد الهجرة، وإن نزل بغير المدينة))[1]

ويقول ابن عطية: ((كل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم فهو مدني سواء ما نزل بالمدينة أو في سفر من الأسفار أو بمكة. وإنما يرسم بالمكي ما نزل قبل الهجرة))[2]

وبهذا التحليل يمكن القول بأنه لا يوجد اختلاف أو تناقض بين من يحدد المكان وبين من يحدد الزمان وإنما نجعل الأصل اعتبار المكان، ونجعل اعتبار الزمان ضابطاً في المكي والمدني؛ كقول عمر: «والله إني لأعلم أين نزلت في عرفة»، ولم يقل: «متى نزلت»، ولا يتصور أن يُفهم أن عمر لا يدرك أنها نزلت بعد الهجرة، وإنما الظاهر من ذلك أنه حينما حدد المكان فإنه قد حدَّد الزمان، ولم يلغه، وعلى هذا يمكن القول بأن من عبر بالزمان من العلماء المتأخرين فإنه من باب التحرير وضبط المسألة وليس قولاً آخر يعارض القول بالمكان.

---

[1] التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص13.

[2] المحرر الوجيز، ج2، ص143.

- **مميزات المكي والمدني:**

استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التي يتناولها. وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات.

- **ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية:**

1- كل سورة فيها سجدة فهي مكية. باستثناء الحج على من يقول بمدنيتها.

2- كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن. وذُكرت ثلاثًا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة. لأن أكثر من بمكة جبابرة فتكررت على وجه التهديد والإنكار.

3- كل سورة فيها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وليس فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فهي مكية، يقول الزركشي: وهذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر... فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح.

4- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة.

5- كل سورة فيها آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك.

6- كل سورة تفتح بحروف التهجي ك "ألم" و"الر" و"حم" ونحو ذلك فهي مكية سوى الزهراوين: وهما البقرة وآل عمران، واختلفوا في سورة الرعد. وهذا أيضا حكم أغلبي.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية **المميزات الموضوعية** وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

1- الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية، والآيات الكونية.

2- وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلمًا، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

3- ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجرًا لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلية لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

4– قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يصخ الآذان، ويشتدّ قرعه على المسامع، ويصعق القلوب ويؤكد المعنى بكثرة القَسَم، كقصـــار المفصَّـــل إلا نادرًا.

ضوابــط المدني ومميزاته المــوضوعية:

1- كلّ سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية. لأنّ خطابها لمن يقر بأصل الرّسالة كأهل الكتاب والمؤمنين

2- كلّ سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية. لذلك ضعّف شيخ الاسلام القول بأن سورة الحديد مكية لأنّ فيها ذكر المنافقين وأهل الكتاب وهذا إنما نزل بالمدينة. (الفتاوى123/17)

3- كلّ سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.

هذا من ناحية الضوابط، أمّا من ناحية **المميزات الموضوعية** وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

1- بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد، والصّلات الاجتماعية والعلاقات الدولية في السّلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.

2- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنيهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم.

3- الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدّين.

4- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشّريعة ويوضح أهدافها ومراميها.

- **فوائد العلم بالمكي والمدني:**

وللعلم بالمكي والمدني فوائد أهمــها:

أ– الاستعانة به في تفسير القرآن: فإنّ معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيرًا صحيحًا، وإن كانت العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب. ويستطيع المفسّر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يُميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخًا للمتقدم.

مثال: {**وَلا تَنْقُضُوا الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**} أمر الله عباده أن لا يحنثوا في يمين أكدوها بالحلف، وكان هذا قبل نزول آية الكفارة، وكذا آيــة:

{**وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ**} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ، {**وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ**} يَعْنِي: مِسْطَحًا، إِلَى قَوْلِهِ: {**أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**} [النُّورِ: 22]. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ يَا رَبّنا، إِنَّا لنُحِبّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَعَادَ لَهُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ.

* يقول الشافعي: ((لا يحل لأحد يفتي في دين الله إلا رجلا عارفا بكتاب الله: بناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به.))[1]

فإذا لم تعرف مثلا زمن نزول آية "**لكم دينكم ولي دين**" فإنك قد تفهم من معنى الآية أن المسلمين غير مكلفين بالجهاد ولكن إذا علم أن السورة إنما نزلت بمكة أدرك أن هذه السورة علاج للمرحلة التي كان فيها الرّسول صلى الله عليه وسلّم، وليست دليلا على عدم الجهاد.

ب– تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فإنّ لكل مقام مقالًا، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجًا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لُبّه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكلّ مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم

---

[1] الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، ج2، ص331.

وأحوال بيئاتهم، ويبدو هذا واضحًا جليًّا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

جـ- الوقوف على السّيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية.

فإنّ تتابع الوحي على رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالًا للشك فيما رُوِيَ عن أهل السير موافقًا له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

د- الحكـــمة في التشريع:

أخرج البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها في بعض حديثها قالت:" إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا.

مباحث تتعلق بالمكي والمدني:

المتفق على مكيتها: الأنعام، الأعراف، يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء.

المتفق على مدنيتها: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة.

ما نزل مفرقا وما نزل جمعا:

الذي نزل جمعا كسورة الكوثر، المسد، أما المفرق فهو كثير.

ما نزل مشيعا:

المشيع هو ما نزل جملة تحتف به الملائكة. كالأنعام نزلت بمكة يشيعها سبعون ألف ملك.

بعض المراجع: «المكي والمدني في القرآن دراسة تأصيلية نقدية للسور والآيات » للدكتور عبد الرزاق حسين أحمد، وقد درس كل ما له تعلق بالمكي والمدني من سورة الفاتحة إلى سورة الإسراء.

الدرس الخامس:

أسباب النزول

ما المراد بأسباب النُّزول؟ للجواب عنه، يجب أن نبين أن نزول القرآن لا يخرج عن قسمين:

الأول: أن لا يكون له سبب مباشر، بل ينْزل حسب الحاجة والمصلحة.

الثاني: أن يقع حدث فينْزل قرآن بشأنه، وهذا هو المراد بأسباب النُّزول.

وهذا الحدث يشمل كلّ قول أو فعل أو سؤال وقع ممن عاصروا التنْزيل، ونزل القرآن بسببهم.

ويمكن تعريف أسباب النُّزول بالآتي: "**كل قول أو فعل أو سؤالٍ ممن عاصروا التنْزيل نزل بشأنه قرآن**"

****ومن أمثلة القول:**

ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأُعَفِّرن وجهه في التراب.

قال: فأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يصلي؛ زعم ليطأ على رقبته.

قال: فما فَجَأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه.

قال: فقيل له: مَا لَكَ؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحةً.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً».

قال: فأنزل الله عزّ وجل ـ لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه ـ {**كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى *أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى *إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى *أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى *عَبْدًا إِذَا صَلَّى *أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى *أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى *أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى *أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى *كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ *نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ *فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ *سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ *كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**} [العلق: 6 - 19].

** **ومن أمثلة الفعل:**

ما أخرجه الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: {**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**} [البقرة: 197].

** **ومن أمثلة السؤال:**

ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، قال: «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فأنزل الله تعالى: {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيْضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**...} إلى آخر الآية [البقرة: 222].

- **الفرق بين قَصَص القرآن، وأسباب النزول:**

وإذ كان بحثنا عن أسباب النزول خاصة، فإننا لن نعرض لما أنزله الله ابتداء غير مبني على سبب من سؤال أو حادثة كأكثر الآيات المشتملة على قَصص الأمم الغابرة مع أنبيائها، أو وصف بعض الوقائع الماضية أو الأخبار المستقبلة، أو تصوير مشاهد القيامة وهي في القرآن كثيرة أنزلها الله لهداية الخلق إلى الصراط المستقيم، وجعلها مرتبطة بالسّياق القرآني من غير أن تكون إجابة عن سؤال أو بيانا لحكم شيء وقع. قال السيوطي: "والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت." [1]

فبحثنا إذن ينحصر في معرفة **"ما نزلت الآية أو الآيات بسببه متضمنة له أو مجيبة عنه أو مبينة لحكمه زمن وقوعه"** وهو ما عبر عنه العلماء بـ:**"سبب النزول"**.

1- الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص116.

وعمدنا إلى بيان هذا، لأنه قد يلتبس على دارس النزول وأسبابه قد يلتبس عليه سبب النُّزول بقَصَص القرآن، إذ الآيات القرآنية قد تكون قصّة مفصلة أحداثها فتدخل في "قَصص القرآن"، وقد تكون بسببِ قصةٍ حدثت فتدخل في "أسباب النزول"، لكن ليس لكل قصص القرآن سببُ نزولٍ.

- **صيغ عبارات أسباب النُّزول:**

الأصل في أسباب النُّزول الصريحة أنها **نقلية** من جهتين: أولها الصيغة التي يُحكى بها سبب النُّزول، والأخرى الحدث الذي يُذكر في سبب النُّزول، فكما لا يصح افتعال حَدث يقال فيه: إنه سبب نزول، كذلك لا يصلح ذكر صيغة لم ترد في المنقول عن الصحابة أو التابعين وأتباعهم.

وأشهر الصيغ في أسباب النُّزول هي العبارة التي تأتي بعد فاء السببية (فنَزلت، أو فأنزل) وعبارة (نزلت في كذا، أُنزلت في كذا).

أولاً: عبارة: (فأنزل الله، فنَزلت):

عبارة (فأنزل الله، فنَزلت) أَدْخَلُ في السببية من عبارة (نزلت في كذا، أُنزلت في كذا)؛ إذ غالب ما يرد بهذه الصيغة يدخل في سبب النُّزول المباشر بخلاف عبارة (نزلت في كذا أُنزلت في كذا).

ثانياً: عبارة: (نزلت في كذا، أُنزلت في كذا):

يكثر في هذه العبارة إرادة التفسير، وما يأتي منها لبيان سبب النُّزول المباشر قليل مقارنة بالعبارة الأولى.

وقد وقع خلاف بين العلماء في ورود هذه العبارة عن الصحابي؛ هل تُعدُّ من أسباب النُّزول، أو من قبيل التفسير؟

ومعنى هذا أن العلماء اختلفوا في عبارة (نزلت في كذا) دون عبارة (فنَزلت، فأنزل الله)، فهم يجعلون عبارة (فنَزلت، فأنزل الله) من قبيل المرفوع؛ لأنَّ سبب النُّزول يحكي حدثاً وقع في زمن الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ لذا فهو من هذا القبيل.

أما عبارة (نزلت في كذا)، فبعضهم يجعلها من قبيل المرفوع؛ كالإمام البخاري، وبعضهم يجعلها من قبيل التفسير؛ لكثرة ما ترد هذه العبارة عنهم، وهم يريدون بها أن ما يذكرونه يدخل في معنى الآية وحكمها.

ومن أمثلة ما يرد من هذه العبارة في سبب النُّزول المباشر:

– وفي قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَاسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} [البقرة: 196] روى البخاري بسنده عن عبدِ الله بن معقل قال: «جلست إلى كعب بن عجرة رضي الله عنه فسألته عن الفدية، فقال: نزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامّة....»

ومن أمثلة ما يرد من هذه العبارة من التفسير:

– ما روى مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [إبراهيم: 27]، قال: «نزلت في عذاب القبر».

- **فوائد أسباب النُّزول:**

1 – معرفة المعنى المراد بالآية:

إن سبب النُّزول يعين على معرفة المراد وتعيينه، إذ قد ترد عليه احتمالات صحيحة من حيث هي، لكن سبب النُّزول يحدد أحد هذه المعاني، ويكون هو المراد دون غيره.

وقد نقل السيوطي بعض أقوال العلماء في أهمية أسباب النُّزول، منها: «قال ابن دقيق العيد: بيان سبب النُّزول طريق قوي في فهم معاني القرآن. »[1]

وقال ابن تيمية: «معرفة سبب النُّزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسّبب يورث العلم بالمسبب».[2]

– ما رواه البخاري بسنده عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: «نزلت هذه الآية فينا كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَلِ أبوابِ بيوتهم، ولكن من ظهورها

1- الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص160.

2- مجموع الفتاوى، ج13، ص339.

فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قِبَلِ بابه، فكأنه عُيِّرَ بذلك فنزلت: **{وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تأتوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [البقرة: 189]**»

وكون البيوت في الآية هي البيوت المسكونة مما أجمع عليه السَّلف، وإن اختلفوا في سبب النُّزول على أقوالٍ قول البراء هو أصوبها؛ لأنّه قول صحابي شاهَدَ التنْزيل، وهو عارف بعادات قومه التي نزل القرآن بشأنها.

– ومن أجل هذا كان جهل الناس بأسباب النزول كثيرًا ما يوقعهم في اللبس والإبهام، كما حدث لمروان بن الحكم حين توهم أن قوله تعالى: {**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ**}[آل عمران: 188] وعيد للمؤمنين، قال: "**لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون**"! فقال ابن عباس: إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه، ثم قرأ ابن عباس: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ} حتى قوله: {يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا}[آل عمران: 188].

ولولا بيان سبب النزول لظل الناس يستحلون تناول المسكرات وشرب الخمور أخذا بظاهر قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} [المائدة: 93] ، فقد حكي عن من قال: الخمر مباحة، احتجاجا بهذه الآية، وخفي عليهما سبب نزولها، وهو ما قاله الحسن وغيره: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم، وقد أخبرنا الله أنها رجس! فأنزل الله تعالى: {**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا**}.

ومن ذلك قوله تعالى: {**فأينما تولوا فثم وجه الله**}[البقرة: 115]، فإنا لو تُرِكنا ومدلول اللفظ لاقتضى أنّ المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سَفرا ولا حضرا، وهو خلاف الإجماع،

فلمّا عرف سبب نزولها علم أنها في نافلة السفر، أو فيمن صلّى بالاجتهاد ثمّ بان له الخطأ؛ على اختلاف الروايات في ذلك.

ومنها: معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وتعيين المبهم فيها، ولقد قال مروان في عبد الرحمن بن أبي بكر: إنه الذي أنزل فيه: {والذي قال لوالديه أفّ لكما} حتى ردت عليه عائشة – رضي الله عنها– وبيّنت له سبب نزولها.

2 – معرفة حكمة التشريع، ومسايرته للحوادث الواقعة:

فأي حدث يحدث، ويحتاج المسلمون فيه إلى بيان فإنه يحصل لهم بيانه بطرق متعددة، منها نزول القرآن الكريم.

وإذا تأملت بعض التشريعات وجدتها نزلت على أسبابٍ؛ اللعان، والظهار، وتقسيم الغنائم وغيرها من التشريعات. ومعرفة هذه الأسباب المقترنة بالآيات يدلُّك على شيء من حكمة التشريع، ورحمة الله بعباده بأن لم يتركهم هملاً بلا شرع يضبط أمورهم.

3 – الاستفادة منها في مجال التزكية والتربية والتعليم:

إن إدراك أسباب النُّزول تعطي المربي فرصة كبيرة في التعامل مع الناس على ما هم عليه من الواقع الذي يعيشونه، ومن الأخلاق التي جبلهم الله عليها، وترشده إلى كيفية إثارتهم إلى القضية التي يريد أن يتحدث عنها ببيان كيفية عناية الله بمن نزل فيهم قرآن من المؤمنين، وكيف عالج ما فيهم من الأدواء، وكيف فضح أعداءهم وأبان لهم صنائعهم ومنكراتهم.

- **قواعد في أسباب النُّزول:**

وقع خلاف بين العلماء في علاقة السبب بالعموم الوارد في ألفاظه على قولين:

الأول: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الثاني: أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

وقد أفاد العلماء بأن القول الأول أقوى وأولى على التحقيق.

ولا يُفهم من القول الثاني أنهم يرون أن أحكام الله النازلة على سبب تختصُّ بالشخص المعين الذي نزلت فيه الآية ولا تتعداه، لكن مرادهم أنها مختصة به من جهة النُّزول، ويدخل معه غيره من طريق القياس، لا من طريق تعميم اللفظ[1]

الفرق بين المذهبين (القاعدتين):

أولاً: الفرق بين المذهبين في طريقة التعميم، فالقائلون بأن العبرة بعموم اللفظ لا يعنيهم من نزل فيه الخطاب بقدر ما يعنيهم المعنى الذي يعممونه.

أما القائلون بأن العبرة بخصوص السبب فيعنيهم بالدرجة الأولى من نزل فيه الخطاب؛ لأنه هو المقصود الأول به، ثم يدخل معه غيره بعد ذلك قياساً.

ثانياً: أن من يذهب إلى عموم اللفظ قد يُدخل غير صورة السبب في معنى الآية، أما من يذهب إلى القياس، فلا يقيس إلا في صورة السبب، ولا يُدخل غير صورته فيه.

مثال:

ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: {**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**} [البقرة: 195]، فقد ورد فيها أنها نزلت في النفقة، رواه البخاري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، ومراده: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك النفقة في سبيل الله تعالى.

فإذا تأملت قوله تعالى: {**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**} الذي جاء في سياق الأمر بالإنفاق في الجهاد في سبيل الله، وجدته أمراً عامّاً لا يختصُّ بترك النفقة فقط، بل ترك النفقة في الجهاد هي صورة من صور الإلقاء باليد إلى التهلكة، – هذا على القاعدة الأولى– ولو اعتبرت خصوص السبب (النفقة) فإنك لا يمكن أن تقيس غير أمور النفقة في هذا الموضع؛ لأنك ستكون محصوراً بصورة السبب (النفقة) فتقيس عليها، فتقول: أيُّ تركٍ للنفقة فيه إلقاء باليد إلى التهلكة؛ فهو داخل في معنى الآية قياساً؛ كترك النفقة على الأولاد، واليتامى، والمساكين،

1- للتفصيل؛ ينظر: مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور (ص47).

فأنت تدخل هذه الصور لأنها تشارك أصل السبب في ترك النفقة. لكن إذا رأيت من يتقحم المنكرات والمعاصي فإنك لا تستطيع إدخاله في صورة السبب لأنّ فعله لا علاقة له بالنفقة، وإن كان فيه إلقاءٌ باليد إلى التهلكة.

فإذا نزعت إلى العموم في جملة {**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**}، وجعلت صورة السبب . ترك النفقة في الجهاد . مثالاً ؛ صحَّ عندك إدخال كل صورة فيها إلقاءٌ باليد إلى التهلكة، فتدخل من يشرب المسكرات والمخدرات والدخان؛ لأنه يلقي بيده إلى التهلكة، وكذا غيرها من الصور التي تدخل في هذا المقطع.

وبهذا يتبين أنّ القول بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أشمل للمعاني من القول بأن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، وأن غير السبب يدخل قياساً. والله أعلم.

بعض المراجع: - لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي

- أسباب النزول للواحدي

- المحرر في أسباب النزول، للدكتور خالد المزيني.

الدرس السادس:

الناسخ والمنسوخ

من أشهر من كتب فيه: قتادة (ت117هـ)، والزهري (ت124هـ)، النحاس 338هـ

يعدّ الناسخ والمنسوخ ضربا من ضروب التدرج في نزول الوحي فمعرفته تظهرنا على جانب من حكمة الله في تربية الخلق، وتقفنا على مصدر القرآن الحقيقي: وهو الله رب العالمين، لأنه يمحو ما يشاء ويثبّت، ويرفع حكما ويبدل آخر، من غير أن يكون لأحد من خلقه عمل في ذلك ولا شأن.

قال العلماء: ولا يجوز لأحد أن يفسّر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه النّاسخ والمنسوخ، وقد قال علي بن أبي طالب لقاص: "أتعرف النّاسخ والمنسوخ؟ قال: الله أعلم قال: هلكت وأهلكت."

وقد أطال العلماء في تعريف النّسخ لغة واصطلاحا، لما له من معان متعدّدة، فالنسخ يأتي بمعنى الإزالة ومنه قوله تعالى: {**فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله**} . الحج52، يعني: يزيله ويبطله

ويأتي بمعنى النّقل من موضع إلى موضع ومنه: "نسخت الكتاب" إذا نقلت ما فيه حاكيا للفظه وخطه. قال مكي: وهذا الوجه لا يصح أن يكون في القرآن، {**إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**} الجاثية 29

ويأتي بمعنى التبديل، كقوله: {**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ**} النّحل 101.

أما اصطلاحا فيعرّف على أنه: "رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي" خرج بالحكم رفع البراءة الأصلية"

ويقسم النسخ على أقسام: نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ السنة بالقرآن، ونسخ القرآن بالسنة... على أننا في هذا المقياس؛ يعني: "علوم القرآن" لن نتعرض إلا لنسخ القرآن بالقرآن.

- **علاقته بالمكي والمدني:**

قال النحاس (ت338هـ) في كتابه الناسخ والمنسوخ: «وإنما نذكر ما نزل بمكة والمدينة؛ لأن فيها أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ؛ لأن الآية إذا كانت مكية، وكان فيها حكم، وكان في غيرها مما نزل بالمدينة حكم غيره = عُلِمَ أن المدنية نسخت المكية» الناسخ والمنسوخ.

ومن الآثار الدالة على بنائهم النسخ على المكي والمدني، ما جاء عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: أَلِمَنْ قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: {**وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ..... إلا من تاب**} [الفرقان: 68]

قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: {**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا**}[النساء: 93]» رواه مسلم.

الفرق بين النسخ والتخصيص: التخصيص هو "قصر العام على بعض أفراده"، وليس في هذا القصر رفع حقيقي للحكم عن بعض الأفراد، فلفظ العام موضوع أصلا لكلّ الأفراد، ولم يقصر على بعضها إلا بقرينة التخصيص

وتراعى في التخصيص قرينة سابقة أو لاحقة أو مقارنة، أمّا النّسخ فلا يقع إلا بدليل متراخ عن المنسوخ، ويكون التخصيص في الأخبار وغيرها، أم النّسخ فلا يقع في الأحكام.

وقد اعتنى ابن العربي بتحريره فأجاد: "كقوله: {**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**} {**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**}،{**ود كثير من أهل الكتاب...فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**} وغير ذلك من الآيات التي خصت باستثناء أو غاية. وقد أخطأ من أدخلها في المنسوخ."

الفرق بين النسخ والنسء:

النّسء : التأخير، **ومنه قوله تعالى: [إنما النسيء زيادة في الكفر]** بمعنى تأخير البيان إلى وقت الحاجة، فقد أُنسئ الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وأمروا في حال الضعف بالصبر على الأذى.

وقد بين لنا الزركشي هذا الموضوع بقوله: "وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف، وليست كذلك بل هي من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال العلّة إلى حكم آخر، وليس بسنخ. إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدا". ينظر: البرهان في علوم القرآن.

الفرق بين النسخ والبَداء: البَداء (بفتح الباء) في اللغة: الظهور بعد الخفاء، وهو: أن يستصوب المرء رأيا ثم ينشأ له رأى جديد لم يكن معلوما له. والنسخ غير البداء لأن الأول ليس فيه تغيير لعلم الله تعالى، والثاني يفترض وقوع هذا التغيير.

والبَداء يستلزم سبق الجهل وحدوث العلم، وكلاهما محال على الله عز وجل، لأنه عالم بكل شيء ومحيط به: ما كان وما هو كائن، وما سيكون. والنّسخ جائز عقلا، وواقع فعلا في القرآن الكريم. ينظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس.

قال الزرقاني1: "أن الله تعالى حين نسخ بعض أحكامه لم ينشأ له رأي جديد كان يفقده من قبل. وإنما كان سبحانه يعلم الناسخ والمنسوخ أزلا من قبل أن يشرعهما لعباده، بل من قبل أن يخلق الخلق، ويبرأ السماء والأرض، إلا أنه –جلت حكمته– علم أن الحكم الأول المنسوخ منوط بحكمة أو مصلحة تنتهي في وقت معلوم، وعلم بجانب هذا أن الناسخ يجيء في هذا الميقات المعلوم منوطا بحكمة ومصلحة أخرى. ولا ريب أن الحكم والمصالح تختلف باختلاف الناس، وتتجدد بتجدد ظروفهم وأحوالهم، وأن الأحكام وحكمها والعباد مصالحهم، والنواسخ والمنسوخات كانت كلها معلومة لله من قبل ظاهرة لديه لم يخف شيء منها عليه ".

- **مسألة:** لا يدخل في الناسخ والمنسوخ ما أبطله القرآن من عادات الجاهلية وتقاليدها كتحريم نساء الآباء وتشريع الدية والقصاص، وما رفعه من شرائع من قبلنا كإباحة بعض المطعومات التي كانت محرمة عليهم وقد رجح المحققون من العلماء إخراج هذا كله من عداد الناسخ.

كما جاء عن الحسن البصري أن آية" **الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى** "نَسخت ما كانوا يفعلونه من نسخ التراجع، فإن كانت هذه الآية نزلت في ذلك فهي محكمة، ولا يقال: إنها ناسخة لفعلهم؛ لأن فعلهم ذلك لم يكن بقرآن نزل، ولا هو حكم من أحكام الله عز وجل، ولا يقال أيضاً لذلك الفعل الذي كانوا يفعلونه: منسوخ؛ لأنه لم يكن حكماً ثابتاً بخطاب سابق لهذا الخطاب.

- **ما يُشترط في النسخ:**

1- أن يكون الحكم المنسوخ شرعيًّا.

2- أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطابًا شرعيًّا متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه.

3- وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدًا بوقت معين. وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يُعَد هذا نسخًا. قال مكي -رحمه الله-:"ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعرًا بالتوقيت والغاية مثل قوله في البقرة: {**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**} مُحكم غير منسوخ، لأنه مؤجل بأجل، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه."

- **ما يقع فيه النسخ:**

قال العلماء إن النسخ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي سواء أكانت صريحة في الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي، على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أو الآداب الخُلُقية، أو أصول العبادات والمعاملات لأن الشرائع كلها لا تخلو عن هذه الأصول. وهي متفقة فيها قال تعالى: {**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**}[الشورى: 13]. وقال:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**}[البقرة: 183].

أما الخبر الصريح -الذي ليس بمعنى الطلب؛ كالوعد والوعيد- فلا يدخل فيه النسخ.

- **أنواع النسخ في القرآن**: النسخ في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نسخ التلاوة والحكم معًا: ومثاله: ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت: "كان فيما أُنزل: عشر رضعات معلومات يُحرِّمن، فنسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهن مما يُقرأ من القرآن"

والأظهر أن التلاوة نُسِخَت ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فتوفي وبعض الناس يقرؤها.

النوع الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة: ومثاله: نسخ حكم آية العِدَّة بالحول مع بقاء تلاوتها – وهذا النوع هو الذي أُلِّفت فيه الكتب وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة. والتحقيق أنها قليلة، كما بيَّن ذلك القاضي أبو بكر ابن العربي (ت544). ينظر: أحكام القرآن.

النوع الثالث: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم: وقد ذكروا له أمثلة، منها آية الرجم: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله، والله عزيز حكيم"..وبعض أهل العلم يُنكر هذا النوع من النسخ. لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن.

- **الحكمة من النسخ**:

1- مراعاة مصالح العباد.

2- تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس.

3- ابتلاء المكلَّف واختباره بالامتثال وعدمه.

4- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها؛ لأن النسخ إن كان إلى أشقَّ ففيه زيادة الثواب، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويُسر.

- **أمثله على الناسخ والمنسوخ**:

- قوله تعالى: {**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ**}[البقرة: 115]، ، منسوخة بقوله: {**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**} [البقرة: 144].

- قوله: {**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ**}[البقرة: 240]، نُسِخت بقوله: {**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً**}.[البقرة: 234].

- قوله: {**وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ**} [البقرة: 284]، نُسِخت بقوله: {**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا**} [البقرة: 286].

- قوله: {**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ**} [الأنفال: 65]، نُسِخت بقوله: {**الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ**} [الأنفال: 66].

-{**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**} [آل عمران: 102]، لَمَّا نَزَلَتْ قَامَ قَوْمٌ حَتَّى تَوَرَّمَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَتَقَرَّحَتْ جِبَاهُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**}[التغابن: 16].

بعض المراجع: - الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى، لقتادة.

- الناسخ والنسوخ، للنحاس.
- قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن، لمرعي بن يوسف الكرمي.